هل حان الوقت لتجديد أفكارنا ؟! ... وأن نسير وفق معايير حديثة في لحظة تاريخية ملحة؟!

عادل السويدي

الحلقة الأولى

المقدمة

سوف أحاول بقدر المستطاع أن أقوم بدراسة تحليلية ـ أولية و متواضعة ـ في توضيح بعض الجوانب ـ السلبية و الإيجابية ـ التي لا زالت تحكم رؤيتنا و هي تعتبر جزءٌ من المسار الوطني العربستاني، لاستكشاف الطريق الذي يمهد لنا الوصول إلى ما نطمح إليه خلال الفترة القادمة.

من خلال بحثنا التالي سوف نبذل المحاولة ـ و لا أدّعي الصواب فيما نذهب إليه ـ في التركيز على المعالجة الموضوعية، السياسية و الفكرية، للإحاطة بمواطن الخلل الذي يجعلنا نبحث في معالجته و بذل الجهود المنهجية لكي نولّد البديل عن الخلل القائم، و بالتالي بناء التصورات العلمية لهذا البديل و العمل على صياغة هذا البديل بمقاييس علمية متأنية و صبورة.

و قبل الدخول في هذا البحث دعوني أطرح بعض التساؤلات حتى تكون مفتاحاً للتفكير عن مجرى و مغزى هذا البحث.

أولا: هل نحن حقاً في مرحلةٍ تاريخيةٍ يشكّل فيها النضج الاجتماعي و الثقافي و حتى الفكري، و السياسي ـ باعتبار الأخير أرقى وعي ـ ما يجعلنا مؤهلين في المساهمة في معالجة هذا الخلل، و بالتالي تصبح كتاباتنا النظرية قابلة للتطبيق على أرض الواقع أو حتى أن تكون لها علاقة بهذا الواقع و صلة بالظروف الموضوعية الماثلة ؟؟

إن مفتاح أية فعاليات سياسية لجس نبض الواقع هو أن نثير الأسئلة حول تناقضاته و تجليات هذا التناقض و التفكير في كيفية تجاوز هذه المآزق التي تحيط بهذا التناقض، و من ثم يقتضي منا بذل الجهود للتحليل الموضوعي للواقع السياسي القائم، و التفكّر بالردود العقلانية التي تترتب على الممارسات التي تمس الواقع و تقترب منه، و ذلك بغية تطوير بعضها و كشف نواقص البعض الآخر، و السعي في إهمال الجوانب غير المفيدة لهذا التطور، و هذه هي مهمة تقع على عاتق المفكّرين و المخلصين من أصحاب الرؤية الموضوعية و الاستمرارية في العمل، أي العمل على (سياسة المراحل) و دون القفز عليها أو الاستعانة الطائشة للدعم الخارجي و بشكل غير واعي.

تداعيات الماضي... و تأثيراته السلبية على أفكارنا

إن عقلية الفرد العربستاني بحاجة أساسية للوعي: الفكري و السياسي، و وعي المرحلة الاجتماعية التي يمر بها شعبنا، فلا يمكن الافتراض بوجود نموذج اجتماعي عربستاني و الفكر القبلي و كيانه قائم بكل قوة في الواقع، فهذا الفكر القبلي الممزّق يبحث عن نقاط الاختلاف و المعارك قبل البحث عما هو مشترك و ايجابي و ناضج، حيث أن بناء التصورات الصحيحة و تطبيقها يتطلب تحديد المقومات الموضوعية للسير إلى الأمام، و الأهم ـ برأيي ـ أن يتم تصفية مرحلة التخلف القائم للدخول في مرحلة التقدم، و كل ذلك يتطلب عقلية متنوّرة و مناهضة في الوقت ذاته عن ((ثقافة القوة و تهميش الآخر))، لا سيما التسلّح بثورة أخلاقية تفرض نفسها علينا، و عدم قطع جذور الاتصال بالمجتمع و رسم أحلام طوباوية مستمدّة من الواقع الأوروبي المتطوّر مثلاً، أو المبنية على وعودٍ واهمة كان قد جرّبها البعض ـ رضا شاه و إبنه فيما بعد ـ و قد انقلبت نتائجها السلبية عليهم و عضوا إصبع الندامة على الأخذ بها. و ربما من المهم أيضا أن نذكر مثالاً آخراً ـ رغم قسوته ـ فإن الأمير الشيخ خزعل ألكعبي قد وثقَ بالبريطانيين و استمع إلى نصائحهم و طبّق خططهم ولكن دفع حياته ووطننا ثمنا لتلك النصائح، أي عدم الاعتماد في التغيير الوطني على الأجنبي، الذي كان السبب المباشر ـ و ما يزال ـ في تخلفنا و ضياع وطننا و كياننا العربي.

و لو رجعنا إلى الوراء قليلاً للنظر حول حركاتنا التنويرية أو الفكرية أو السياسية العربستانية و مسيرتها في أوائل القرن العشرين و إلى هذا اليوم، سنكتشف أن أسباب الخلل في هذه الحركات لها أسبابها التي تلزمنا للبت فيها، و أن نطرح البدائل الموضوعية الناضجة و العملية لتحجيم الشرخ الذي حدث و أوصلنا إلى حقبة التفسّخ الاجتماعي و الاقتصادي و بالتالي السياسي مما سهل على الآخرين سيطرتهم على مجتمعنا و كياننا العربي و الأهم، احتلالهم لعقولنا.

و بهذه الرؤية سنحاول تبيان بعض الجوانب المهمة التي ربما أهمله البعض من خلال كتاباتهم، بأن ما تعرّضنا له في العام 1925 م كانت له أسباب و نتائج موضوعية أدت بدورها إلى تقويض الحكم العربي في وطننا.

لو ألقينا الضوء بنظرة دقيقة لتلك الفترة الزمنية سنجد أن الفرد العربستاني كانت لديه إنتمائين في الفكر و السلوك، و هما: الفكر القبلي، و الفكر المذهبي الطائفي، حيث أن هذين الفكرين كانتا هما أهم ما

كانت تشغله في تلك المرحلة {1}، و لأن شعبنا كان يتأرجح بين إمبراطوريتين: الإيرانية و العثمانية، و كان الفرد العربستاني يحس بالخوف دائما من الغزاة فقد عانى ما عاناه في تلك الفترة من تأثيراتهم السلبية و حروبهما في المنطقة العربية و الإسلامية و كانت نتائج تلك الحروب تنعكس سلباً على إقليمنا بشكل مباشر و غير مباشر، و ربما يكون هذا أحد أهم الأسباب التي جعلت الصيرورة المرحلية للتكوينة المجتمعية العربستانية في تلك الفترة غير قادرة على مواكبة العصر و أن تكون غير مستوعبة للتحديات التي كانت تحيط به من كل جانب، بسبب تعقيدات المرحلة الزمانية و المكانية، و بالتالي كانت سمات ـ المرحلة تلك ـ عند العربستانيون هو عدم تبلور الحس القومي و الوطني لديهم، و ربما من الواجب أن أذكر أهم الأمور التي كانت تحول دون أن يتبلور هذا الحس، و هو:

ـ أن المجتمع العربستاني كان يعاني من الضربات المتكررة من قبل ثلاث قوى أجنبية: البريطانية (العدو الإستراتيجي) و الفارسية و العثمانية. و لو ألقينا الضوء هنا على حالة الحروب الجديدة المتجددة بين هذه القوى الثلاث لوجدنا بأن الحروب كانت تتجه لصالح القوى الاستعمارية البريطانية، و هي ـ أي بريطانيا ـ كانت تتصارع مع القوى الاستعمارية الأخرى و المتصاعدة حديثاً مثل الإتحاد السوفييتي و فرنسا، حيث أن هذه القوى كانت في صراع جلي و محتدم مع بريطانيا على تقاسم تركة العثمانيين و الفرس، و توزيع هذه التركة عن طريق رسم الخرائط الجديدة لهذه المنطقة و بالتالي توزيعها و توزيع خيراتها على أن تكون المحصلة النهائية من هذه التوزيعة لصالح المستعمر القديم الجديد (بريطانيا)، و كانت معاهدة السايكس بيكو هي التي بينت آفاق المستقبل المنظور لهذه القوى و بالتالي تقسيم المنطقة العربية للنفوذ البريطاني.

فق تمثلت الأهداف الإستراتيجية البريطانية في العالم وقتئذ و حول الخليج العربي تحديداً على النحو التالي:

فصل السواحل عن الدواخل، أي فصل المناطق الساحلية على الخليج العربي عن المناطق الصحراوية البعيدة عن هذه السواحل، و سيطرة البريطانيين على كل المناطق الساحلية الغنية بالنفط و مشتقاته على ضفتي الخليج العربي كما كانت هذه سياستها في كل العالم، لأنها ـ أي القوة البريطانية ـ كانت قوة بحرية و تستطيع السيطرة على المناطق المهمة في العالم {2}، و كان إقليم عربستان يقع ضمن هذه التقسيمة البريطانية و بالتالي جعل المناطق الصحراوية ملكاً للسكان العرب المحليين، و المقصود بها أن يبقى العرب بعيدين و محرومين في نفس الوقت عن معرفة محتويات أراضيهم و كنوزها النفطية و أن يبتعدوا عن ممارسة سيادتهم حول الموانيء التجارية في خليجهم الغني بالموارد النفطية و غيرها من الموارد و بالتالي أن يبقوا منشغلين بالحياة البدوية الخالية من أي تطور مجتمعي {3}، و من ثمّ يتم تقسيم هذه

المناطق منها إلى فتات و البعض الآخر لبناء سدود قوية في وجه القوى المصارعة للإمبراطورية البريطانية و أقصد في وجه الإتحاد السوفييتي.

المصادر:

1 - راجع كتاب: الشيخ خزعل أمير المحمرّة، إعداد مجموعة من المؤلفين - الدار العربية للموسوعات.

2 - و بصدد الرؤية البريطانية يرجى مراجعة الكتاب الأكاديمي الهام ((بريطانيا و الخليج العربي، 1870-1975، و المؤلف من جزئين بواقع 1700 صفحة، و الذي يؤكد مؤلفه البريطاني السيد جون.ب.كيلي رئيس قسم البحوث لمعهد دراسات الكومنولث بجامعة أكسفورد، على أنه "خلال ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر الأولى كان تصاعد النفوذ البريطاني في الخليج حقيقة مفروغاً منها، فلقد كان الخليج إذا استخدمنا الاصطلاح الذي كان متداولاً قبل جيل أو جيلين ((بحراً موصداً)) أمام الدول الأخرى، ولكن في أواخر القرن بدأ النفوذ البريطاني يواجه تحديات و بدرجات متفاوتة و إن لم تكن خطيرة، فتركيا أولاً ثم فرنسا، ثم ألمانيا و روسيا.

3 - نفس المصدر السابق.